

تطوّرات الأدب المقارن

قراءة في جهود "سوزان باسنت"

**Developments in Comparative Literature
A Reading of Susan Bassent's Efforts**

صراح سكيّنة تلمساني

المدرسة العليا للأساتذة، العلامة الشيخ مبارك بن محمد إبراهيم الميلي الجزائري، بوزريعة الجزائر.

Tlemsanisarah.sakina@ensb.dz

تاريخ الاستلام: 2025/12/27 تاريخ القبول: 2026/05/13 تاريخ النشر: 2026/06/01

ملخص:

الأدب المقارن مجال بيّن يتّسم بالانفتاح على حقول معرفية مختلفة، ويهتمّ بدراسة نصوص عبر ثقافات مختلفة. ظهر هذا المجال في البيئة الفرنسية، ثمّ انتقل إلى الثقافات الأخرى، لكن سرعان ما فقد أهميّته بالمفهوم التقليدي، حيث ظهرت مفاهيم جديدة ارتبطت بفكر ما بعد الحداثة، وما نتج عنها مثل: الدراسات الثقافية، ودراسات ما بعد الاستعمار.

نحاول من خلال دراستنا تسليط الضوء على جهود واحدة من أبرز المشتغلين في حقل الدراسات المقارنة، والتي تمثّل التوجه الأمريكي في الدراسات المقارنة وهي الناقدة والمفكرة "سوزان باسنت"، وذلك من خلال تقديم قراءة في أعمالها.

كلمات مفتاحية: الأدب المقارن، الدراسات الثقافية، دراسات ما بعد الاستعمار، دراسات الترجمة.

Abstract:

Comparative literature is an interdisciplinary field characterized by its openness to different fields of knowledge and its focus on studying texts across diverse cultures. This field emerged in the French context and then spread to other cultures, but it quickly lost its importance in the traditional sense as new concepts emerged, linked to postmodern thought and its offshoots, such as cultural studies and postcolonial studies.

Through this study, we attempt to highlight the work of one of the most prominent figures in comparative studies, representing the American approach to the field: the critic and thinker Susan Bassent, by offering an analysis of her works.

Keywords: Comparative literature; Cultural studies; postcolonial studies; Translation studies.

*المؤلف المرسل: الاسم واللقب

1. مقدمة:

الأدب المقارن مجال بيّن يفتح على حقول معرفية مختلفة مثل: نظرية الأدب، والتاريخ الأدبي، والترجمة الأدبية. يختلف عن الدراسات الأدبية الأخرى في أنّ المشتغل في حقل الدراسات المقارنة ينبغي أن يكون مطلعاً على مجالات فكرية مختلفة، إضافة إلى ضرورة إتقان اللغات الأجنبية. يهتم الأدب المقارن بدراسة نصوص عبر ثقافات مختلفة، ويدرك المتبع لمسار الدراسات المقارنة تقهقر أهمية الأدب المقارن بالمفهوم التقليدي القائم على إيجاد أوجه الشبه والاختلاف بين أدبين قوميين مختلفين. لقد ظهرت جزاءً هذا مفاهيم بديلة للأدب المقارن، حيث انفتح على مجالات عديدة مثل: الدراسات الثقافية، ودراسات الترجمة، وقضايا ما بعد الاستعمار.

حمل لواء التجديد في الأدب المقارن جيل من المفكرين، والباحثين اقترحوا مفاهيم جديدة للأدب، وتجاوزوا فكرة المركزية الأوروبية التي رُسّخت في الأدب المقارن لعقود من الزمن. نحاول أن نركّز دراستنا على واحدة من أبرز المشتغلين في حقل الدراسات المقارنة، ومن الذين أسهمت أعمالهم في تطوير مقولات الأدب المقارن، وفتحه آفاقاً جديدة. نسعى من خلال هذه الدراسة إلى القيام بقراءة في كتاب "سوزان باسنت" الموسوم: الأدب المقارن: مقدمة نقدية. وقبل تقديم قراءة في عملها سننطرق إلى قضايا نظرية متعلّقة بالأدب المقارن مثل تعريفه، وأهميته، والتطوّرات التي عرفها الأدب المقارن.

2. تعريف الأدب المقارن:

يُعرّف الأدب المقارن في أوسع تعريفاته بأنّه علم وفنّ يهتم بالمقارنة بين أدبين أو أكثر لمعرفة ما بينهما من علاقات التأثير والتأثر، وأوجه الشبه والاختلاف، والقنوات التي مرّت بها مختلف التأثيرات بين أدباء ينتمون إلى لغات وبلدان مختلفة. "وليس هناك مفهوم واحد اصطلح عليه للأدب المقارن، بل إنّ هذا المفهوم يختلف بين الدارسين في القطر الواحد، وهو أكثر تبايناً بين الدارسين في مختلف الأقطار. فهناك قصر الأدب المقارن على الدراسات الأدبية البحتة، وهذا الاتجاه لا يسمح بتجاوز الدراسات الأدبية إلى سواها من ميادين النشاط الفني، ويشترط التلاقي التاريخي وحدود التأثير والتأثر بين الآداب المقارنة، وهناك اتجاه آخريوسّع مفهوم الأدب المقارن، بحيث يشمل أي دراسة مقارنة بين الأدب وغيره من ميادين النشاط الفني" (كفاي، 1972، ص10)

يُلاحظ من خلال هذا التعريف أنه لا يوجد تعريف ثابت للأدب المقارن، لأنّ كل مدرسة من مدارس الأدب المقارن لها توجهها، ولها منطلقها في الدراسة، فهناك من يقتصر على الدراسة الأدبية فحسب، في حين نجد اتجاهها آخر يفتح الأدب على مجالات متنوّعة مثل الفنون والسينما، وغيرهما. إلّا أنه يظلّ في أوسع تعريفاته، يهتم بدراسة العلاقة بين أدبين أو أكثر، وإيجاد مظاهر التأثير والتأثر بين هذه الآداب. هذا تعريف الأدب المقارن في إطاره العام، إلّا أنّه توجد اختلافات في تحديد وضبط مفهومه بين مدارس الأدب المقارن، وليس المجال هنا لذكر كل هذه التفاصيل.

3. أهميّة الأدب المقارن:

للأدب المقارن أهمية بالغة، فهو مجال يتّسم بالانفتاح على الثقافات المختلفة، ويختلف عن غيره من التخصصات الأدبية في أنّه يدرس الأدب كوسيلة لفهم الشعوب والثقافات المختلفة.

تكمن أهمية الأدب المقارن في أنه لا يخدم فقط الأدب القومي، "بل لدراسة الأدب المقارن نفع كبير في المجالين القومي والعالمي، ففي المجال القومي يؤدي الاطلاع على آداب أجنبية أخرى ومقارنتها بالأدب القومي إلى التخفيف من حدّة التعصب للغة والأدب القومي بغير مقتض صحيح" (ندا، 1992، صفحة 26)

إنّ الاشتغال في مجال الأدب المقارن يحمي الباحث من الوقوع في التوقع والتعصّب الأعمى إلى الثقافة القومية، ذلك أنّ اطلاعه على آداب أجنبية مختلفة يفتح المجال أمامه للانفتاح والتعرّف على الآخر.

لا تتوقف أهمية الأدب المقارن عند خدمة الأدب القومي فحسب، بل إنه يخدم حركة الأدب العالمي، ذلك أنّ الأدب المقارن يهتم بدراسة الظواهر الأدبية المختلفة التي لا يقتصر وجودها على أدب قومي واحد، بل في مختلف الآداب العالمية.

ونجد أيضا أنّ الأدب المقارن يقدّم خدمة للدراسات الأدبية الأخرى، مثل: "تاريخ الأدب" و"النقد الأدبي"، فمثلا المؤرّخ الأدبي لا يمكن أن يفهم الآداب التي يؤرّخ لها إلّا بالعودة إلى الأدب المقارن الذي يبحث في العلاقات التاريخية بين الآداب، ولماذا انتشر جنس أدبي في مرحلة زمنية، واختفى في مرحلة زمنية أخرى.

4. مجال البحث في الأدب المقارن:

يكتسب الأدب المقارن أهمية من كونه مجالا عابرا للتخصصات، ومن حيث انفتاحه على مجالات مختلفة. تختلف مجالات البحث في الأدب المقارن بين المدارس المقارنة، ففي حين نجد أنّ اهتمام المدرسة الفرنسية لا يتجاوز حدود الأدب، نجد بالمقابل أنّ المدرسة الأمريكية وسّعت مجال المقارنة لتفتحه على الفنون. ولكن تبقى هناك مجالات مشتركة بين مدارس الأدب المقارن، ويتفق الأدب المقارن على دراستها مثل: دراسة الترجمات، ذلك أنّ الأدب المقارن يدرس الترجمة من لغة إلى أخرى، ويبحث في سبب رواج ترجمة في الأمم التي تُرجمت إليها، كما يهتم بدراسة المؤلفين، والكتّاب الذين أثّروا في ثقافات أجنبية عن ثقافتهم القومية. ويدرس الأدباء المشهورين والكتّاب الذي كانوا وسيطا بين ثقافتهم القومية والثقافات الأجنبية عنهم، مثلا في الثقافة العربية شخصية "ابن المقفع" باعتباره كان وسيطا بين الثقافات العربية والفارسية والهندية، ونضرب مثلا في الثقافة الغربية عن شخصية "شاتوبريان" باعتباره وسيطا بين الثقافة الفرنسية والثقافة الإنجليزية.

ويهتم الأدب المقارن بالأجناس الأدبية، ولكنه يركز على دراستها من منظور يختلف عن منظور الناقد الأدبي، ومنظّر الأدب، إذ يدرس المقارنيّ سبب رواج جنس أدبي في مرحلة معينة، وسبب أفوله في مرحلة أخرى إضافة إلى عوامل وظروف انتقال جنس أدبي من ثقافة إلى أخرى. ويبحث الأدب المقارن في مدى تأثير كاتب في أدب أمة أخرى، مثل: "شكسبير" الذي يعدّ من أكثر الكتاب الإنجليز تأثيرا في آداب أمم أخرى مثل المتاب الرومانسيين الفرنسيين الذين تأثروا به بشكل كبير. ويسلّط الأدب المقارن الضوء على دراسة صور الشعوب والبلدان، ونجد هذا

النوع من الدراسات منتشرا بشكل كبير في أدب الرحلة. وغيرها من المجالات التي تدلّ على أنّ الأدب المقارن مجال حيويّ ويتّسم بالانفتاح.

5. التطوّرات التي عرفها الأدب المقارن:

الأدب المقارن مجال دائم الحركة، فقد شهد تطوّرات كثيرة، ويتّسم بشيء لا نجده في الاتجاهات الأدبية الأخرى، وهو ما يُعرف بمدارس الأدب المقارن، إذ نجد في الأدب المقارن ما يُعرف بالمدرسة الفرنسية، والمدرسة الأمريكية، والمدرسة السلافية.

تعدّ المدرسة الفرنسية من أعرق مدارس الأدب المقارن وأقدمها، إذ من المعروف أنّ الأدب المقارن ولید البيئة الفرنسية، وقد اتّسمت هذه المدرسة بشيء لا نجده في المدارس الأخرى، وهو فكرة "الجيل"، فنجد في المدرسة الفرنسية الجيل الأول، والجيل الثاني، والجيل الثالث، كلّ جيل من هذه الأجيال كان له تصوّر حول الأدب المقارن، وكان له أتباع، ومقولات يتبنّاها. وقد تطوّرت هذه الرؤية مع الأجيال الثلاثة.

وإذا خرجنا من إطار المدرسة الفرنسية، فإننا نجد أن المدرسة الأمريكية اقترحت مقولات ومفاهيم تتجاوز مقولات المدرسة الفرنسية، والأسس التي قامت عليها، ففي حين لا تقبل المدرسة الفرنسية أن تقوم بالمقارنة بين أديين قوميين ما لم يكن بينهما علاقة تاريخية مباشرة مثل علاقة المستعمر والمستعمر، وفي حين تصوّر هذه المدرسة على مفهوم القوميّة، وتعتبر اللغة مقياسا أساسيا لتحديد، وتحاول أن تربط بين الظروف التاريخية المحيطة بالعمل الأدبي، وفي العلاقات التاريخية بين الثقافات المختلفة نجد أنّ الدرس المقارن قد عرف تطوّرات في الرؤية والتوجّه مع المدرسة الأمريكية التي عارضت مقولات المدرسة الفرنسية، وباتت تنادي بـ "دراسة الظاهرة الأدبية في شموليتها دون مراعاة الحواجز اللسانية، حيث يتعلّق الأمر بدراسة التاريخ والأعمال الأدبية من وجهة نظر دولية" (علّوش، 1987، ص62)

من هنا يُلاحظ أنّ المفهوم التقليدي للأدب المقارن قد تقهقر في وقتنا الحالي، فقد أثبتت الدراسات عدم جدوى الدراسة التاريخية المترقّمة التي نادى بها المدرسة الأمريكية، ناهيك عن مقولات الأدب المقارن التي لم تخرج من بوتقة مقولات المركزية الأوروبية ما أدّى بقوقعة هذا المجال.

وهنا نجد موجات للفكر النقدي غيّرت منطلق الدراسات المقارنة، وتجاوزت المقولات الكلاسيكية للأدب المقارن، وفنّدت المقولات الرامية إلى تقديس "القومية"، واعتبارها أمرا أساسيا في عملية المقارنة هي والجانب التاريخي. لقد تحقّق هذا كلّ مع فكر ما بعد الحداثة، وما نتج عنه من مقولات ما بعد البنيوية، والتفكيكية، والنسوية، وكلّ هذه التيارات والتوجهات الفكرية ترفض المركز الواحد، والمركز الثابت، فبالتالي أدّت إلى زعزعة مكانة الأدب المقارن حسب ما ترسّخه المدرسة الفرنسية.

"ما نجده اليوم هو صورة مشوّهة متنوّعة للدراسات الأدبية المقارنة، والتي تتغيّر تبعا للمكان الذي تجرى فيه هذه الدراسات، ولقد تحدّى النقاد الإفريقيون، والهنود والكاريبيون رفض معظم النقد الأدبي الغربي التسليم والاعتراف بما تتضمنه سياستهم الأدبية والثقافية وما تنطوي عليه من معانٍ" (باسنت، 1999، ص11)

من هنا نرى أنّه ظهرت أشكال بديلة للدراسات الأدبية المقارنة، وغيّرت وجهة الدراسات الأدبية بصفة عامة، وعملت على تغيير النظرة الثنائية في الأدب المقارن الكلاسيكي، نظرة روّجت لها المدرسة الفرنسية لعقود من الزمن، إذ كانت ترى دائما ضرورة البدء من الثقافة الأوروبية واعتبارها نموذجا ينبغي أن يحتذى، ونظرة تنتقد نقدا لاذعا كلّ من هو خارج دائرة المركزية الأوروبية، وتهتمّش آداب المستعمرات مثلا الآداب الإفريقية. ومن النقد والدارسين الذين حملوا وعيا بهذه الأفكار "سوزان باسنت" التي عملت من خلال أعمالها وأبحاثها على اقتراح منظور جديد للأدب المقارن، منظور يتجاوز النظرة التقليدية التي تركّز على ثنائية التأثير والتأثر بين الآداب، وتقّدس مفهوم "القومية". لقد فتحت هذه الباحثة الأدب المقارن على مجالات جديدة ووسّعت أفق المقارنة، وأولت الترجمة أهمية بالغة لم تكن تحظى بها من قبل.

6. التعريف بسوزان باسنت:

ناقدة أدبية أمريكية، ومن أبرز المشتغلين في حقل الأدب المقارن، وواحدة من مؤسّسي حقل "دراسات الترجمة" بوصفها تخصصا مستقلا. ولدت سنة 1945، درست اللغتين الإيطالية والإنجليزية، وحصلت على درجة الدكتوراه في الفلسفة بالفرنسية سنة 1975. عملت أستاذة محاضرة في جامعات إيطالية وإنجليزية. وتشغل منصب أستاذ الأدب المقارن في واحدة من أعرق الجامعات الإنجليزية، وهي جامعة: "جلاسكو". تركّز أعمالها على فكرة تجاوز الأدب المقارن المركزية الأوروبية التي همّشت الآداب الأوروبية. من أعمالها: كتاب: "دراسات الترجمة"، و"بناء الثقافات: مقالات في الترجمة الأدبية" وهو كتاب مشترك بينها وبين "أندييه ليفيقيير".

7. قراءة في أعمال "سوزان باسنت": كتاب "الأدب المقارن: مقدّمة نقدية":

وقع اختيارنا على هذا الكتاب تحديدا لأنه يمثّل نقلة نوعية في مجال الدراسات المقارنة. صدر هذا الكتاب أوّل مرة سنة 1993، وعنوانه بالإنجليزية: Comparative Literature : A critical introduction. جاء في مقدمة وسبعة فصول عالجت فيه الكاتبة قضايا الأدب المقارن من منظور جديد يتجاوز مقولات المدرسة الفرنسية.

افتتحت "باسنت" كتابها بمقدّمة عنوانها: ما هو الأدب المقارن اليوم؟"، وهو سؤال يوجي بأنّ الدراسات المقارنة تطوّرت وتبنّت أطروحات جديدة. لقد بدأت الكاتبة مقدّمها بالإجابة عن السؤال الذي طرحته حول ماهية الأدب المقارن، وركّزت على أنّ "أبسط الإجابات هي أنّ الأدب المقارن يُعنى بدراسة نصوص عبر ثقافات مختلفة، وأنّه واحد من مجالات الدراسة البينية، وأنه يهتم بأنماط العلاقات في الآداب عبر كلّ من الزمان والمكان" (باسنت، 1999، ص5)

تقرّر "باسنت" على مدى كون الأدب المقارن مجال بيّني يفتح على حقول معرفية مختلفة، وأنّه غير محدّد بفترة زمنية معيّنة لأنه يهتم بالعلاقات في الآداب عبر أزمنة وأمكنة مختلفة. لقد استحضرت الكاتبة في مقدّمة كتابها تاريخ المناقشات العتيقة التي تعود إلى الثقافة الفرنسية والتي واكبت بدايات استخدام مصطلح الأدب المقارن في القرن التاسع عشر، وفي عصر ما بعد الحداثة مازالوا يصارعون نفس السؤال الذي طُرِح منذ أكثر من قرن مضى:

ما هدف الدراسة في الأدب المقارن؟ وكيف يمكن أن تكون المقارنة هي هدف أي شيء على الإطلاق؟ وإذا سلّمنا أنّ لكلّ أدب معايير الخاصة به فما هي المعايير التي تحكم الأدب المقارن؟، وهل الأدب المقارن دراسة أكاديمية قائمة بذاتها أم أنها مجرد مجال من مجالات الدراسة؟" (باسنت، 1999، ص 6)

تذكر "باسنت" أنّ هذه الأسئلة طُرحت من قبل المدرسة الفرنسية في بدايات ظهور الأدب المقارن، ومازالت تُطرح، ولم تختف خارج نطاق أوروبا، ومن ذلك إشارتها إلى جهود النقاد الإفريقيين، والهنود والكاريبين في مجال الدراسات القارنة، ونذكر في نهاية المقدمة بأنّه "يمكننا أن نجادل بقولنا إنّنا نصل إلى نهاية القرن العشرين فإننا ندخل مرحلة جديدة من مراحل التاريخ المضطرب للأدب المقارن، وممّا لا شك فيه هو أنّ هناك أزمة في هذا الموضوع" (باسنت، 1999، ص 13)

تناول الكتاب محاور مختلفة، فنجد الفصل الأول الموسوم: "كيف جاء الأدب المقارن إلى الوجود؟"، وهنا قامت الباحثة بتتبع تاريخي لمصطلح الأدب المقارن، وترجعه إلى سياقه في البيئة الفرنسية. تشير "باسنت" في هذا الفصل إلى عنصر مهم موسوم: "المنظور الاستعماري"، وفيه تتحدث عن "الطريقة التي كانت أوروبا تصوّر بها نفسها لبقية العالم، واعتقادهم بتفوّق ثقافتهم لأنّ هذا جزء من سياستهم الاستعمارية" (ينظر باسنت، 1999، ص 22 و 23).

يظهر، من خلال هذا الفصل، تبني "سوزان باسنت" لمفاهيم جديدة في الأدب المقارن، مفاهيم تتجاوز الأدب المقارن بالمنظور التقليدي، وانتقدت المقارنين الأوائل المروجين للفكر الاستعماري، ذلك أنهم كانوا دائماً يعتبرون الشعوب المستعمرة أقلّ منزلة منهم، ويظهر هذا في عملية المقارنة. لقد قامت بعرض مواقف تاريخية لبعض القادة والساسة الغرب الذين رفضوا الآداب الهندية والعربية نظراً لإيمانهم بتفوّق ثقافتهم. وإلى جانب هذا فإننا نجد أنها قد عرضت عدداً من النماذج الأوروبية في الأدب المقارن الكلاسيكي. وقد أنهت هذا الفصل بمقولة لعلمين من أعلام المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن، وهما: "رينيه ويليك" و"هاري ليفن" أنّه: "جاء الوقت لكي نتخلّى عن المفاهيم القديمة، وغير الضرورية، وأن نراها في صورتها الحقيقية كنتاج عصر معيّن، وسياق ثقافي معيّن" (باسنت، 1999، صفحة 36).

من هنا يظهر تبني "باسنت" لمفاهيم هذه المدرسة، ويتّضح أنّ رؤيتها في الأدب المقارن تتجاوز القيود والمقولات التي فرضتها المدرسة الفرنسية.

1.7. فيما وراء حدود أوروبا: المفاهيم البديلة للأدب المقارن:

حاولت الكاتبة من خلال هذا الفصل عرض تطورات الأدب المقارن خارج أوروبا. وتبدأ هذا الفصل باستحضار علم من أعلام المدرسة الأمريكية، وهو: "هنري رمالك"، إذ ترى أنّ: "مقاله وضع أسس الأدب المقارن الأمريكي، والتي تختلف عن المدرسة الفرنسية محطّماً بها شوكة النموذج الفرنسي نهائياً، وبرز فيها موقفه بتصريحه بأنّه اختار عن عمد مدخلا غير تاريخي وغير نوعي" (ينظر باسنت، 1999، ص 37)

تفصّل "باسنت" في عرض آراء "ريماك" بوصفه علما من أعلام المدرسة الأمريكية، وهنا نجد آراءه تتجه اتجاها غير الذي اتجهته المدرسة الفرنسية، بل كثيرا ما هاجم "ريماك" مقولات هذه المدرسة، ولعلّ أهم المقولات التي رفضها: مفهوم "القومية"، ويستبدل هذا المفهوم بـ: "البلد". وهنا نلمح أنّ هذا التوجه في الأدب المقارن يرفض الجانب السياسي والإيديولوجي، فـ " عملية تحويل الأدب المقارن إلى دراسة تتجاهل السياسة تماما هي إحدى السمات الرئيسية للمدرسة الأمريكية" (باسنت، 1999، ص38)

لقد شمل هذا الفصل خلاصة آراء المدرسة الأمريكية في الأدب، وهي آراء غيّرت مسار الدراسات المقارنة، ففي حين ركّز المقارنون الفرنسيون على أهمية التاريخ، بل رأوه شرطا جوهريا في عملية المقارنة، تبثّت "باسنت" بوصفها ممثلة للتوجه الأمريكي في الأدب المقارن رأيا مختلفا لا يهمل التاريخ مطلقا، ولكن يحمل منظورا آخر، فـ "التاريخ له أهمية محورية في الأدب المقارن، إلّا أنّ هذا التاريخ يجب أن يكون تاريخ الثقافة، وليس أي فرع آخر من فروع التاريخ" (باسنت، 1999، ص42)، ويأتي هذا الفصل بمسألة هامة، وهي: "مدخل ما بعد الاستعمار"، أو كما تُرجم في بعض الدراسات بما بعد الكولونيالية.

إنّ هذا المبحث جديد، وتوجه جديد في الدراسات المقارنة يتجاوز المنظور التقليدي للأدب المقارن الذي ركّزت عليه المدرسة الفرنسية، وهو "مجال يعكس توجه الأدب المقارن خارج أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، ويتضمّن فكرة ضرورة البدء من الثقافة المحلية والنظر منها نحو الخارج بدلا من البداية من نموذج أوروبي للتفوق، والنظر منه إلى الداخل". (باسنت، 1999، ص44).

وفي هذا السياق تركّز الباحثة على نماذج خارج الإطار الأوروبي مثل النماذج الإفريقية والهندية التي تحاول أن تُثبت ذاتها، وخصوصيتها، وتفرّدها، و"الأدب المقارن من هذا المنظور نشاط سياسي، وجزء من عملية إعادة بناء الهوية الثقافية القومية وتأكيداتها في عصر ما بعد الاستعمار". (باسنت، 1999، ص45).

2.7. ف3: الأدب المقارن والدراسات الثقافية:

حاولت الكاتبة في هذا الفصل الربط بين جزئيتين هامتين، وهما: علاقة الأدب المقارن بالدراسات الثقافية، وقد رأت "باسنت" وجود "أوجه تشابه عديدة بين الدراسات الثقافية في التسعينيات، وبين الأدب المقارن في الرقن الماضي، فكلاهما محاولات بينية يقوم بها دارسون يحاولون مجابهة عالم سريع التحوّل" (باسنت، 1999، ص52).

إنّ محاولة ربط "باسنت" الأدب المقارن والدراسات الثقافية لهما تأكيد على أنّهما أسهمت في تطوير الأدب المقارن، وفي فتحه على مجالات مختلفة، وتكون بهذا قد تجاوزت النظرة التقليدية التي رسّختها المدرسة الفرنسية. وتقرّر في نهاية الفصل بـ "أنّ الأدب المقارن في أحد مفاهيمه قد انتهى ومات، ويسعد على هذا الانتهاء ضيق التحديد الثنائي، وعدم جدوى المدخل اللاتاريخي، وقصر نظر المدخل الذي يعتبر الأدب قوة لنشر الحضارة عالميا، ولكن الأدب المقارن مازال حيّا في أشكال أخرى، في إعادة التقييم الجذرية للنماذج الثقافية الغربية التي تتم الآن في أجزاء

جديدة قدمتها دراسات النوع أو الدراسات الثقافية، وفي دراسة عمليات النقل بين الثقافات التي تجري داخل إطار دراسات الترجمة" (باسنت، 1999، ص 53).

ختمت الكاتبة هذا الفصل بخلاصة توضّح توجهها، وهو توجّه يدعو إلى انفتاح في الأدب المقارن، وبأنّه ارتدى غطاءً جديداً. صحيح تمّ تجاوز النظرة التي رسّختها المدرسة الفرنسية، وتمّ تجاوز المدخل التاريخي، إلّا أنّها في الوقت ذاته انفتحت على دراسات الترجمة، وعلى الدراسات الثقافية بتفرّعاتها المختلفة.

3.7. الهويّات المقارنة في عالم ما بعد الاستعمار:

يعدّ هذا الفصل من أخصب فصول الكتاب، فمن خلاله تطرّقت الباحثة إلى تطوّر الأدب المقارن ممثلاً في مجال دراسات ما بعد الاستعمار، وتبقى المنهجية في جوهرها مقارنة. وهنا أشارت الباحثة إلى نماذج هامة من الأدب الإفريقي، نماذج حاولت أن تتصدّى لمقولات الاستعمار ولتقويض الإمبريالية الغربية، فعلي سبيل المثال نستحضر "وولي سوينكا" من خلال كتابه "الأسطورة والأدب والعالم الإفريقي" الذي بيّن فيه آراءه في الدفاع عن الثقافة الإفريقية، وكذا توجيهه نقداً لعمل تهميش الأدب الإفريقي.

أشارت "باسنت" إلى نماذج مختلفة من الأدب الإفريقي، إذ لم تتوقّف عند "وولي سوينكا"، بل تطرّقت إلى تجربة كلّ من "واثيونغو نغوي" و"تشيدي أموتا" فقدوا أولوا اهتماماً بالغاً بالأدب الإفريقي، وتصدّوا للمقولات الغربية في مجال المقارنة، وعارضوها "وهكذا تحوّلت مرحلة المعارضة والعداء للتأثيرات والتقاليد والمناهج الأوروبية إلى دراسات أدبية ذات مركز إفريقي يتمّ فيها دراسة تأثير أوروبا على الإفريقي" (باسنت، 1999، ص 86).

أفاضت "سوزان باسنت" في هذا الفصل الحديث عن نماذج من الأدب ما بعد الاستعماري، وتقرّ أنّ "ظهور مصطلح ما بعد الاستعمار، على المسرح النقدي لا شكّ أهمّ تطوّر حدث في الأدب المقارن في القرن العشرين" (باسنت، 1999، ص 87). وقد استحضرت نماذج مختلفة من الآداب العالمية في هذا الفصل، وركّزت على مقولات تخدم الفكر ما بعد الاستعماري مثلاً مسألة تقويض المعتمد الغربي، وتذكر تحديداً مسرحية "العاصفة" لشكسبير، بوصفه حاملاً لقيم استعمارية.

وتختم الباحثة فصلها بخلاصة جوهرية توضّح مدى تطوّر مقولات الأدب المقارن قائلة: "دراسة الأدب المقارن في التسعينيات، لا بدّ وأن تنطلق من إدراك أنّ الاستعمار، وما ينطوي عليه هو في الواقع عملية مزدوجة" (باسنت، 1999، ص 104).

4.7. بناء الثقافات: البعد السياسي لحكايات الرّحالة.

حلّلت الباحثة في هذا الفصل نماذج من جنس أدبي هام للغاية، وهو أدب الرّحلة، فهذا الجنس من أكثر الفنون التي يتناولها الأدب المقارن بالدراسة، لأنّه من خلاله يستحضر الأديب ثقافة أجنبية مختلفة عن ثقافته القومية.

يُنسب الجهد الرائد لسوزان باسنت في هذا الفصل من كتابها لأنها أشارت إلى وجود أنساق مضمرة في أدب الرحلة، إذ "تكشف القراءات المعاصرة لقصص الرحالة والتي أوحى بها المنهجيات المختلفة المأخوذة عن

دراسات النوع، والدراسات الثقافية، ونظرية ما بعد الحداثة وجود نصوص كامنة وراء وتحت التفاصيل البريئة في ظاهرها لتلك الرحلات إلى بلاد بعيدة، ويتبين لنا بوضوح الطرق التي استعملها الرحالة لكي يبنوا تصوّره عن الثقافات التي قابلوها، ومن حكايات الرحالة عن أسفارهم يمكننا تتبع الأنماط الثقافية الموجودة" (باسنت، 1999، ص106)، وتواصل "باسنت" حديثها عن أهمية أدب الرحلة في مجال البحث المقارن قائلة: "ويمكننا بالفعل أن نتكلم الكثير من حكايات الرحالة، وربما أثبت هذا المجال في المستقبل القريب أنه واحد من أخصب حقول الدراسة المقارنة التي خرجت إلى النور في السنوات القليلة الماضية، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ فحص النصوص المختلفة التي كتبها الرحالة يبيّن كيف يمكن للأفكار المسبقة الخاطئة والصور النمطية السلبية للثقافات الأخرى أن تنتقل من جيل إلى آخر" (باسنت، 1999، ص107).

لقد فتحت "سوزان باسنت" المقارنة على مجال جديد لم يكن مدروسا، وأشارت إلى تصوّر لم يكن معهودا في الأدب المقارن، وهو البعد السياسي في حكايات الرحالة، فهم " ليسوا منتجين أبرياء للنصوص، فالأعمال التي يبدعونها هي جزء من مناورة لتشكيل مواقفنا وتحديدنا إزاء الثقافات الأخرى" (باسنت، 1999، ص113). قامت "باسنت" بقراءة حفرة في نماذج مختلفة من أدب الرحلة، وقد أشارت إلى الطريقة التي أضفى بها الرحالة الأوروبيون الشهبونية على الشرق وحولوه إلى موقع لخيالاتهم الجنسيّة، ويعدّ هذا أمرا على قدر كبير من الأهمية في الدراسات الأدبية المقارنة، إذ من خلاله نتعلّم كيف تنشئ ثقافة ما تصوّرا نمطيّا عن الثقافات الأخرى، ويق يتم الترويج للصور النمطية.

5.7. من الأدب المقارن إلى دراسات الترجمة:

يوجي عنوان هذا الفصل بحدوث تطوّرات في مجال الأدب المقارن، وهذا ما تقرّه الباحثة في بداية الفصل قائلة: " الأدب المقارن قد تقهقرت أهميته في السنوات الأخيرة، إلّا أنّنا جادلنا أيضا أنّ الممارسات المقارنة مازالت حيّة ومزدهرة تحت مسميات أخرى" (باسنت، 1999، ص157).

هذا الفصل على قدر كبير من الأهمية، فمن خلاله يظهر مدى تطوّر مقولات الأدب المقارن، وانفتاحه على مجالات جديدة. إنّ "باسنت" في هذا الفصل تحاول أن تبين أنّ العلاقة بين الأدب المقارن ودراسات الترجمة علاقة مركبة لها إشكالياتها، وتوضّح مدى التداخل بين هذين الفرعين المعرفيين. وتواصل حديثها عن الدراسات المقارنة الثنائية التي وقفت موقفا متشدّدا من فكرة الترجمة، موقف وصل إلى درجة التهميش وهذا ما أدّى بالترجمة إلى الحصول على مكانة منخفضة. وقد بدأت الترجمة تستعيد مكانتها في السبعينيات من القرن العشرين بعد ظهور مجموعة من الباحثين قدّموا منظورا جديدا لدراسة الترجمة، منظور يتجاوز المقولات القديمة التي تؤكّد على إعطاء الأولوية للنص الأصلي، ويعتبر الترجمة صورة دنيا له.

وهنا قامت ثورة في مجال دراسات الترجمة طرحت أسئلة جوهرية زعزعت مسلّمات كانت مهيمنة لفترة غير وجيزة، نحو: "لماذا تقوم بعض الثقافات بالترجمة بغزارة وبعضها نادر؟ ما نوع النصوص التي تتمّ ترجمتها؟ ما هي

مكانة هذه النصوص في نظام لغة الهدف؟ وكيف يمكن مقارنة تلك المكانة بمثيلاتها في نظام لغة المنبع؟ ما الذي نعرفه عن تقاليد الترجمة ومعاييرها في أوقات معيّنة"، (باسنت، 1999، ص161)، وغيرها من الأسئلة الجوهرية. وتواصل "باسنت" حديثها عن مدى أهمية الترجمة وراهنيتها قائلة: "ونحن إذ نقرب من نهاية القرن العشرين، فإنّ الوقت لا شك قد حان لكي ندرك أنّ عصرا قد مضى، وولّى، وأن الكتابة لا تحدث في فراغ بل داخل سياق، وأنّ عملية ترجمة نصوص من نظام ثقافي معيّن إلى نظام آخر ليست عملية حيادية أو بريئة أو شفافة، وإنّما الترجمة نشاط شديد التفجر والتعدي، وتستحقّ سياسات الترجمة اهتماما أكبر ممّا حظيت به في الماضي، فلقد لعبت الترجمة دورا أساسيا في التحوّلات الثقافية) (باسنت، 1999، ص161).

إنّ سوزان باسنت" ناقدة وباحثة في الأدب المقارن إلا أنّ نظرتها تعكس التطوّرات التي عرفها الأدب المقارن، فهذه تعترف بأنّ الأدب المقارن بالمفهوم الكلاسيكي الذي كرّسته المدرسة الفرنسية قد مضى فنقول: "لقد ولّت أيام عظمة الأدب المقارن كدراسة أكاديمية، وغيّرت أبحاث عبر الثقافات التي أجريت داخل دراسات المرأة ونظرية ما بعد الاستعمار، والدراسات الثقافية وجه الدراسات الأدبية بصفة عامة، وينبغي لنا من الآن فصاعدا أن ننظر إلى دراسات الترجمة بوصفه الدراسة الأكاديمية الرئيسية وإلى الأدب المقارن بوصفه فرعاً قيّماً من مجالات الدراسة فيها" (باسنت، 1999، ص187).

بهذه المقولة تختم "سوزان باسنت" كتابها الهام "الأدب المقارن: مقدمة نقدية"، وهي مقولة تعكس توجهها، ومدى إلمامها بالتطورات التي عرفها الأدب المقارن، إنّها تجسّد منظورا يتجاوز المركزية الأوروبية والمقولات التي بقيت متداولة لعقود حول الأدب المقارن.

8. خاتمة:

حدثت نقلة نوعية في مجال الأدب المقارن، فالمفهوم التقليدي الذي روّجت له المدرسة الفرنسية بأجيالها المختلفة قد تقهقر، فقد ظهرت أشكال جديدة وبديلة للدراسات الأدبية المقارنة، مثل الدراسات الثقافية، ودراسات ما بعد الاستعمار غيّرت وجهة الأدب المقارن، وتبقى الممارسة المقارنة مستمرة تحت مسميات أخرى. تعكس "سوزان باسنت" هذا التوجه الجديد في الدراسات المقارنة، فكتابها "الأدب المقارن: مقدمة نقدية" تجاوز الأطروحات التقليدية التي روّجت لها المدرسة الفرنسية، ناهيك عن تقويضه مقولات المركزية الأوروبية، واهتمامه بآداب وثقافات لطالما همّشت ولم يُسلط عليها الضوء مثل: الآداب الإفريقية،

9. قائمة المصادر والمراجع:

باسنت، سوزان (1999) ، *الأدب /المقارن: مقدمة نقدية*، ترجمة: أميرة حسن نويرة، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة.

كفافي، محمد عبد السلام (1972) ، *في الأدب /المقارن*، دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

ندا، طه (1972) ، *الأدب /المقارن*، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

علوش، سعيد، (1972) ، *مدارس الأدب /المقارن: دراسة منهجية*، الدار البيضاء/بيروت، المركز الثقافي العربي.